﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المؤمنون: 43]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لم يعجّل على أحد منهم قبل الأجل الذي حدّه له ولم يؤخّره

وبّخهم الله بإنشائه من بعدهم قرونًا آخرين، مخبرًا بعده بأنّه لم يعجّل على أمّة من الأمم أن تسبق الأجل المحدّد لهلاكها، ولا تستأخره؛ فكان في ذلك ظهور خيبة المكذّبين، وفلاح المصدّقين[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَسْبِقُ﴾: (سبق) أصْلٌ يَدُلُّ على التّقدّم أو القدمة، وقيل هو التّقدّم في الجري وفي كلّ أمر، ويستعار السّبق لغيره من المعاني، فقد يكون لإحراز الفضل والبروز، ووَصَف الحقّ سبحانه الملائكة بالسّابقات، لأنّها تسبق الشّياطين بالوحي إلى الأنبياء، ويرد أيضًا بمعنى المجاوزة والزّيادة عليه[2]، ومعنى قوله تعالى: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ﴾، أي: أنّ العذاب الذي ضربه الحقّ سبحانه على أمّة من الأمم لا يتقدّم على وقته[3] ولو ساعةً من نهار.

2) ﴿أُمَّةٍ﴾: (أمم) أصْلٌ يدُلّ على تَضامٍّ شيءٍ أو أشياء متجانسة، أي لحاق بعضها ببعض في حيّز يحيط بظاهرها بلطف[4]، فالأُمّة: كلّ جماعة يجمعهم أمرٌ ما، إمّا دينٌ واحدٌ، أو زمانٌ واحدٌ، أو مكانٌ واحدٌ، سواءً كان ذلك الأمر الجامع تسخيرًا أو اختيارًا[5]، والأمّة: القرنُ والجيل من النّاس، جماعةٌ كبيرةٌ متّحدو الجنس أو زمن الوجود معًا[6]، وتأتي الأمّة أيضًا بمعنى الطّريقة والدّين، ومعنى

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 141 - 142.
(2) الفراهيدي، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (سبق).
(3) السمعاني، تفسير القرآن: 3/ 130.
(4) محمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (أمم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، و الراغب، المفردات: (امّ)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أمم).
(6) الجوهري، الصحاح، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (أمم).

الأمّة في الآية: الطّائفة التي تجتمع في قرنٍ ما، فهذه لها آجال مكتوبة موتًا وهلاكًا من غير تقدُّمٍ ولا تأخُّرٍ[1].

3) ﴿أَجَلَهَا﴾: (أجل) أصلٌ يدلّ على المدّة المضروبة للشّيء، كحياة الإنسان، أو وقت حلول الدَّين، والاسم منه الآجِل نقيض العاجِل؛ فمعنى دنا أجل الإنسان: اقترب موته، وحقيقته استيفاء مدّة حياته[2]، ومعنى ﴿أَجَلَهَا﴾ في الآية: وقت عذابها[3] الذي يهلكها ويستأصلها.

4) ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾: (أخر) أصلٌ يدلّ على خلاف التّقدّم، أي: تخلّفُ الشيء (في المكان أو الزمان) عن مقارنه؛ فالآخِر نقيض المتقدّم، والأُخُر نقيض القُدم؛ ومن معاني الآخِر بكسر الخاء ممّا يكون مقابِلًا للأوّل كما التّأخير مقابلٌ للتّقديم[4]، ومعنى ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ في الآية، أي: لا يتجاوزون الوقت الذي حدّد لهم فيزيدون عليه[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لا تستقدم أمّة أجلها ساعة ولا تستأخر

يبيّن الحقّ ﷻ - بعد أن ذكر خلْقَه لأقوام وأمم آخرين - أنه ما تسبق أمّة من هؤلاء الأمم ساعةً عن أجلها الذي جعله اللّهُ لها بالإهلاك والفناء، وما تستأخر عنه[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سرّ فصل الجملة في صدر الآية:

استئناف بيانيّ عن سؤال سائل عن مدّة تعميرهم ووقت انقراضهم

جملة ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ مفصولة عمّا سبقها؛ لأنّها استئنافٌ بيانيٌّ فيه إجابةٌ مُجمَلةٌ عن سؤالِ سائلٍ

(1) النيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 121.
(2) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (أجل).
(3) ابن زمنين، تفسير القرآن العزيز: 2/ 380.
(4) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (أخر).
(5) مكي القيسي، الهداية: 6/ 3863.
(6) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 6/ 421.

أثارته الجملة التي قبلها، والجملة التي بعدها، عن مدّة تعمير هذه القرون، ووقت انقراضهم؛ فإنّ لكلّ قرن أجلًا عيّنه الحقّ سبحانه، ثمّ ينقرض ويخلُفُه قرنٌ آخر يأتي يُعَمَّر بعده قرن كان معاصرًا له، وهذا التّعيين لازمٌ بأمر الله، من غير تقديم ولا تأخير[1].

المجاز بالحذف في الآية:

قوله تعالى: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ فيه مجاز بالحذف، فإنّه لمّا أنشأ من بعدهم قرونًا آخرين أضمر قوله (فأهلكناهم بالعذاب في الدّنيا) فإنّه ما تتقدّم أمّة أجلها طرفة عين، وما يستأخرون أجلهم طرفة عين[2].

أنشأنا قرونًا آخرين فأهلكناهم بالعذاب في الدّنيا من غير سبق ولا تأخير

إيثار استخدام ﴿مَا﴾ النافية:

وآثر التّعبير بـ﴿مَا﴾ مع فعل السّبق والتّأخير بقوله: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾، ولم يستعمل (لا) لدلالة ﴿مَا﴾ على نفي الحال[3]، فيما تدلّ (لا) على الاستقبال في أصلها، ولمّا أراد الحقّ ﷻ أن ينفي السّبق والتّأخير نفيًا واقعًا مشاهدًا جاء بـ﴿مَا﴾، فههنا نفي مشاهد، خلاف التّعبير بـ(لا) الدّالّ على النّفي غير المشاهد.

ما تسبق وما تستأخر نفيٌ مشاهَدٌ محسوس

دلالة التعبير بالمضارع في قوله ﴿مَا تَسْبِقُ﴾:

عندما أراد نَفْيَ سبقِ أجَلِ الأمم أورده بصيغة المضارع بقوله: ﴿مَا تَسْبِقُ﴾؛ للإشارة إلى نفي الأزمان كلِّها؛ فمعناه أنّه ما كان شيء من ذلك السّبق ولا يكون[4] حاضرًا ولا مستقبلًا، فإنّه أمر مقرّر من الحقّ سبحانه.

نفيُ سبق الأجل في الأزمان كلّها

بلاغة الطّباق بين السّبق والتّأخير:

عبّر بالأجَل؛ لأنّ له ابتداءً وانتهاءً، فلا سبق ولا تأخير لأجَل

مهما طغت لا تسبق أجلَها ومهما طلبت لا يُؤخَّر أجلُها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 60.
(2) السمرقندي، بحر العلوم: 2/ 481.
(3) الفارسي، المسائل الحلبيات، ص: 211.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 142.

الأمّة وإن طغت وبغت، ولو طلبت ذلك لما أجيبت إليه "فمهما طغت لا تسبق أجلَها، ومهما طلبت لا يؤخّر أجلها"[1]، وقد طابق بين السّبق والتّأخير، والتعبير بالطباق يُورِد المتضادَّين في صورةٍ واحدةٍ لِتَبَيُّنِ المعنى، لكون العقل مجبولًا على استدعاء الضّدّ.

توجيه المتشابه اللفظي:

مناسبة تقديم السّبق على التأخير

قُدّم السّبق على التّأخير هنا في قول الله تعالى: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ فيما قُدّم التّأخير على السبق في غيرها من المواضع كما في قوله تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٠﴾ [سبأ: 30] وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٤﴾ [الأعراف: 34] ومثله في [يونس: 49] و[النحل: 61]، لأنّ آية سورة المؤمنون ذُكرت لمّا كانوا يستعجلون نزول العذاب والهلاك الموعود؛ فأخبر بأنّ لكلّ أمّة أجلًا من غير تقديم ولا تأخير[2]، أمّا الآيات الأخرى فقد فرض الله هناك مجيء الأجل، فلا يكون حينئذ نظر إلّا إلى التّأخير"[3]، وأنّ من عادة هذه الأمم وديدنها السّعي إلى تأخير أجلها الذي فرضه الله تعالى عليهم لا تقديمه، فيما أورده في [المؤمنون: 43] حكمًا إلهيًا عامًّا.

من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه

ومن النكت اللطيفة أيضًا في تقديم السبق على التأخير - مع أنّ القياس عكس ذلك، إذ المرء مجبولٌ على حبّ الدّنيا وكراهة الموت - هو إفادة أنّ تأخير الأجَل والهلاك ممكنٌ للأمّة بتعرّف أسبابه، والعمل به؛ فإنّ ذلك ممكن الوقوع بترك الظّلم والبغي والفجور وقطيعة الرحم إلى أضدادها من العدل والحقّ والإنصاف وصلة الرحم[4].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4068.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 469.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 142.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/ 364.

معنى ﴿مِنْ﴾ ودلالتها:

استغراق الأمم جميعًا في هذا الحكم

﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ﴾ صلة؛ لإفادة التّوكيد؛ توكيد فحوى القول في أنّ أيَّة أُمّة لا تسبق الوقت المضروب لها ولا تتأخّره[1] وقد زيدت للدّلالة على الاستغراق[2] لبيان أنّ هذا الحكم يشمل الأمم جميعًا، فلا تهلك أمّة إلّا بمجيء وقت هلاكها[3]؛ فإنّ النّكرة في سياق النّفي تعمّ، وفيه إشارة إلى أنّ الآجال بيده تعالى، وهو من تمام قدرته سبحانه.

سرّ تكرار (ما) مع ﴿يَسْتَئْخِرُونَ﴾:

توكيد فعل الاستئخار إذ هو مرغوب البشر

ودخول ﴿مَا﴾ على فعل السّبق أفاد نفي الحال، فلمّا عطف عليه الفعل ﴿يَسْتَئْخِرُونَ﴾ كرّر ﴿وَمَا﴾ النّافية لإفادة التّوكيد[4]؛ فإنّ العطف على نية تكرار العامل، وفائدة التّوكيد في هذا الموضع؛ في أنّ الاستئخار والتّمسّك بالحياة عادةً مطلوبُ البشر ومرغوبهم أكثر من السّبق.

معنى السّينِ والتّاءِ في ﴿يَسْتَئْخِرُونَ﴾:

آجال الأمم حُكْمُ الله وأمره، لا رادّ لقضاء الله ولا معقّب لحكمه

في التّعبير عن تأخير الأجل بالفعل ﴿يَسْتَئْخِرُونَ﴾ المزيد بالسّين والتاء الدّالّان على الطّلب في معاني الأبنية الصّرفية العربية[5]، إشعارٌ بأنّهم لم يألوا جهدًا في طلب التّأخير، لكنّهم مع ذلك عجزوا[6] لأنّ التّقدّم والتّأخّر في آجال تلك القرون والأمم محكومٌ بأمر الله تعالى.

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 125.
(2) دخول من على اللفظ النكرة يفيد استغراق جنس ذلك اللفظ وعمومه، يُنظر: ابن يعيش، شرح المفصّل: 2/ 74.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 235.
(4) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 14/ 5.
(5) ابن جني، المنصف، ص: 77.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 259.

التّذكير في الفعل ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾:

أنّث فعل السّبق حملًا على اللّفظ وذكّـر التّـأخير حملًا على المعنى

لمّا ذكَر فعلَ السّبق جعله مُؤَنَّثًا بقوله: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ﴾ نظرًا إلى لفظ الأمّة المؤنّث، فلمّا أورد فعل التّأخير ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ استعمله مذكَّرًا حملًا له على معنى الأمّة[1] المشتملة على النّاس والبشر، وفي ذلك أيضًا رعاية الفاصلة[2]، فحُمِل الأوّل على اللفظ وحُمِل الثاني على المعنى، وفي ذلك من التّفنّن في الكلام ما فيه.

سرّ إسناد فعل التّأخّر لواو الجماعة:

في الجمع إيذانٌ بـأنّ كـلّ أحد يحبّ أن يتأخّر عن أجله

أُسند فعل التّأخير في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ لواو الجماعة؛ للدّلالة على أنّ كلّ واحد من الأمّة لا يتأخّر عن أجله المكتوب له، فالجمع دالّ على الكُلّيّة، والتّأخّر محبوب للنّفوس مرغوبٌ فيها، فكلّ أحد يكره الموت؛ فكان الإسناد للجمع مناسبًا في هذا المقام، فإنّ كلّ إنسان يحبّ أن يتأخّر عن أجله[3] والضمير لجماعة العقلاء إشارة إلى أنّ الأمّة المعنيّة عبارة عن مجموعة العقلاء المدركين المكلَّفين الذين أرسل إليهم الرّسل، وخوطبوا بالرّسالة[4].

دلالة الآية على التعريض:

وعيدٌ لقريش وإعلامٌ ليبلغوا الأجل الذي أُجّل لهم فتحلّ بهم نقمته

في قوله تعالى: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ تعريضٌ بقريش وإعلامٌ منه تعالى أنّه إنّما أخّر آجالهم مع كفرهم وعنادهم كي يبلغوا الأجل المؤجّل لهم، عندها تحلّ نقمته، ويصيبهم عذابه، وهم في ذلك لا يخرجون عن سنّته فيمن قبلهم من الأمم التي سبقتهم[5].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السّبقُ والتّقدّمُ:

التـقـدّم على الـشيء الـسَّيرُ قُدّامَه، والسبقُ تـجـاوز الـحـدّ والأجل

واستُعمل فعل السّبق في قوله تعالى: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾،

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/ 571.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 259.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 207.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5076.
(5) مكي القيسي، الهداية: 7/ 4967.

في سياق نفي تجاوز الأجل بحال من الأحوال، يعنى لا تتجاوز الأمّة أجلَها المضروب لها في العذاب بأن يقع عليها قبل أوانه.

أمّا فعل التّقدّم فمعناه أنّه يسير قدّامه[1]، أي: أنّ الأمم تسير قدّام آجالها، وهو غير مراد في الآية موضع الاستشهاد.

الأمّة والجماعة:

الجماعة تضامّ عامّ بين أفرادها والأمّة مخصوصة برسول أرسل إليها

في قوله تعالى: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ عبر البيان الإلهي بلفظ الأمّة، دون لفظ الجماعة، فالجماعة حصول التّضامّ بين الأشياء، ومنه تسمية يوم الجمعة لاجتماع النّاس فيه[2]، أمّا الأمّة ففيها معنى الجمع وزيادة، فالأمّة هنا أمّة كلّ رسول أرسل إليها[3]، فهم جماعة مخصوصون برسالة رسول بعث فيهم، فلا يحسن التّعبير بلفظ الجماعة؛ لأنّه لفظ عامّ في كلّ ما كان بين أفرادها، وبين غيرهم تضامّ واجتماع.

الأجل والوقت:

الوقت مقدار من الزّمن والأجل الوقت المضروب لانقضاء الشّيء

استعمل مفردة الأجل في قوله تعالى: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾، ولم يستعمل الوقت؛ لأنّ الوقت معروفٌ، وهو مقدار من الزمان يُفرض لأمرٍ معيَّن[4]، أمّا الأجل فهو وإن كان وقتًا لكنّه يكون مضروبًا لانقضاء الأمر، فأجل الإنسان هو الوقت الذي ينقضي فيه عمره، وأجَلُ الموتِ وقتُ حلوله لانقضاء الحياة التي مضت فيه[5]، فبين الوقت والأجل إذَنْ عمومٌ وخصوصٌ، فالوقت عامّ، والأجل آخرُ المدّة، ونفى في الآية أن تختار أمّة من الأمم أجلَها وهو نهايتها لا على سبيل السّبق، ولا على سبيل التّأخير.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 423.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جمع).
(3) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 35.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 576.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 20.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والثلاثون،
سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 35 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-77-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 35 : المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-77-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984898 بتاريخ 2024/11/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»